**المحاضرة 03: ملامح الفكر الأنتروبولوجي القديم والحديث**

* **مقدمة:**

بصفة عامة يكون الإنسان عبر مراحل وجوده وتطورّه، قد أدرك الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية للإنسان، وقد ظهر في الثقافات والحضارات القديمة أو الحديثة من أولى العناية في طلب الاكتشاف والارتحال لمعرفة المجتمعات الإنسانية، على اختلافها وتنوعها، وأعراقها وأجناسها، وبفضل هؤلاء تكون فكرا أنتروبولوجيا لا يستهان به، كان بمثابة المادة العلمية الخصبة لظهور وتطور علم الأنتربولوجيا الحديث.

1. **في الحضــارات القديمة:**

كانت ولا تزال ثقافة وأحوال الأمم والشعوب، قد شكلت محل اهتمام وجذب العديد من المفكرين والرحالة والمستكشفين، وحاول بعضهم تقديم تفسيرات لهذه الاختلافات القائمة فالحروب والرحلات الاستكشافية وكذا البعثات التبشيرية ساهمت في حدوث ذلك بين الشعوب والأمم.

**ففي الحضارة المصرية القديمة** مثلا، شكلت الرحلات التجارية نقطة التقاء مع باقي الأمم والشعوب، وكانت حضارة مصر القديمة مركز جذب للتجارة والرحلات والتبادلات الثقافية أيضا.

وقد عرف المصريون القدماء بأدب القصة، والرحلات، وبالأشعار والأغاني أيضا بالإضافة إلى الفكر الديني الذي تميزوا به على مدى حضارتهم الممتدة في القدم، كما عرفوا بالأهرامات والمقابر العظيمة، حيث آمن المصريون القدماء بالبعث.

وكان يوجد مع كل جثة محنطة أو غير محطة، بعض الأواني الفخارية، وبعض الأسلحة وأدوات الزينة([[1]](#footnote-1)).

وكانوا يعتقدون أن الإنسان مكوّن من جسم وروح، وأنّ الجسد مصيره إلى القبر بعد الموت، وأما الروح فمصيرها إلى السماء، لكن الروح الأبدية تبقى عالقة في أجساد حيوانات أو طيور، ولذلك وجب الحفاظ على الجسد لتعود إليه هذه الروح.([[2]](#footnote-2))

وكان المؤرخ والعالم الإغريقي هيرودوت قد تحدث في مدوّناته عن مصر وعظمتها بعد زيارته لها قبل الميلاد بنحو خمسة قرون، حيث أكدّ أن أرض مصر تحمل العجائب من المخلوقات، ومن البدائع والروائع في سائر الفنون والصناعات ويستطرد في كتابه "هيرودوت يتحدث عن مصر" عن صوّر الحياة المشرقة التي عاشها المصريون القدماء وأشاد بتفوقهم في ميادين العلوم والمعارف، التي أفادت منها الإنسانية عامة، واستفاد منها قومه الإغريق خاصة.([[3]](#footnote-3))

* **في الحضارة الإغريقية القديمة:**

كانت بلاد الإغريق عبارة عن عدد من المدن الصغيرة، وكانت عرضة للحروب والغزوات، وكان البحر يتغلغل في كل مكان، وهو ما فسح المجال أمامهم للترحال والتجارة والاتصال بباقي الحضارات القديمة، حضارة بابل وآشور وحضارة مصر.

اتسم المجتمع بالمدنية الرفيعة، وتقديم عدد من الأفكار والاتجاهات، فضلا عن طرح المفاهيم الفلسفية في تفسير الديمقراطية والواجبات، فظهر الفلاسفة اليونان، والكتاب والمسرحيين، وشهدت هذه الحضارة ازدهارا فكريا وعلميا ودينيا وفنيا، فظهرت الآداب منذ العصور المبكرة من خلال الملاحم، الشعر الغنائي والمسرح، كما اهتموا بتوثيق التواريخ والحوادث بشكل موضوعي، وكان أشهر المؤرخين "هيرودوت" الذي سماه الأوروبيون "أبو التاريخ" واشتهرت الفلسفة كأقوى بناء فكري إغريقي قديم، كشفت عن الحقيقة في الطبيعة والإنسان والتاريخ والدولة.([[4]](#footnote-4))

وتؤكد الدراسات التاريخية للحضارة الإغريقية، وجود علاقة وثيقة ومباشرة بين التاريخ اليوناني، وتاريخ الشرق القديم، فقد اقتبس اليونانيون أسس الحضارة من المصريين والبابليين والفينيقيين في بداية قيام حضارتهم عن طريق التجارة، كما تأثروا بحضارات الشرق عندما حكموا شواطئ آسيا الصغرى، ومصر وبرقة، وعندما استولوا على جميع بلاد الشرق الأدنى، والأوسط في عهد الإسكندر المقدوني، وشيدوا فيها المدن والمعابد، وأسسوا المدارس والمكتبات ونشروا لغتهم وحضارتهم، واستمرت العلاقات المصرية-اليونانية في التقدم حتى بلغت أوّج مجدها في القرن السابع والسادس ق.م، حيث انطلقت سفنهم التجارية تجوب البحر المتوسط، وترتاد سواحله حاملة معها المنتجات والأفكار، والمظاهر المصرية إلى بلاد اليونان والعكس، كما أخذوا عن البابليين قواعد الفلك وآلاته وحساباته، وتقسيم الأيام والشهور والسنة، أما التأثير الفينيقي فقد شمل المظاهر المادية للحياة، كالصناعات والمنجزات الفنية، وبعض مظاهر الفكر، بالإضافة إلى الأبجدية الفينيقية.([[5]](#footnote-5))

* **في الحضارة الرومانية القديمة:**

كان للحضارة الرومانية القديمة تفاعلها الحضاري، وتواصلها الثقافي، وتبادلها المدني مع حضارات وثقافات ومدنيات العالم القديم، أما من حيث حركية الفلسفة والعلوم، فلم تحظ الفلسفة بنفس المكانة لديهم كما كانت عند الإغريق، ربما بسبب النظرة النفعية التي سادت المجتمع الروماني، ومحاولة الرومان لتطويع ما يحيط بهم لخدمة مجتمعهم، إلا انه يمكن استثناء المذهب الرواقي إلى حد ما، حيث كان الرومان رواقيين بطبيعتهم، حيث اشتغل أتباع هذا المذهب بأغلب الإشكالات التي آثارها الفكر الفلسفي القديم مثل ما وراء الطبيعة والمسائل الفيزيائية في منطقة شرق البحر المتوسط، الأخلاقية، المنطقية، وحتى السياسية وانتشرت تعاليمهم على نطاق واسع، إلا أن العقلية الرومانية كانت عقلية انتقائية، حيث أخذت من الرواقية ما يناسبها، فلم يكن الرومان على سبيل المثال يهتمون كاليونان بالمسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة،بل انصب اهتمامهم على سلوك الفرد، وهو ما ساعد المواطن الروماني على ضبط سلوكه في العالم الواسع، والذي بدا الإنسان فيه ضئيلا، ومواجهة المقادير سواء حملت خيرا أم شرا، وكيفية مواجهة الموت في ثبات، وكيف يظل المرء دوما سيّد نفسه.([[6]](#footnote-6))

ولعلّ كبيعة الرومان العلمية، ونظرتهم النفعية للأشياء، هي التي شكلت توجهاتهم العلمية والعملية، حيث تظهر إبداعاتهم في مجال الهندسة، وبخاصة المعمارية والمدنية، وبنيت المسارح الضخمة، وعرف عن البناء بالخرسانة، وتطوير الطرق الرومانية الشهيرة، وإقامة القناطر، وبناء القنوات المائية المعلقة، وحفر الأنفاق والمناجم وقنوات الصرف واستغلال القوى المائية.([[7]](#footnote-7))

* **في الحضارة الصينية القديمة:**

تعد الحضارة الصينية من أعرق الحضارات إبداعا وفلسفة وعمارة، وكان كونفوشيوس فيلسوف الصين العظيم، الذي خلّد حكمه وفلسفته الإنسانية التي ما زالت تدرس إلى الآن كما خلّف جيلا من المبدعين في كل الحقب التاريخية، كما عرفت الصين بسور الصين العظيم، وبالخزف الصيني المميّز، والعمارة والنحت، وبالقصور الملكية وقبورهم، وغيرها من الشواهد التاريخية الضاربة في القدم.

وحاولت الحضارة الصينية تدوين معتقداتها، وطقوسها الكهنوتية ومجموع معاهداتها والأوامر والأحكام الإمبراطورية، على الفخار البرونز، وجدران المقابر.([[8]](#footnote-8))

وقد هيمنت الحضارة الصينية على منطقة جغرافية شاسعة من شرق آسيا، حيث تختلف العادات والتقاليد ما بين المحافظات والمدن والبلدان، باعتبار الصين واحدة من الحضارات المبكرّة الأولى، وقد وصف المفكر الفرنسي فولتير هذه الحضارة بقوله: "لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها أي تغيير يذكر، في القوانين أو العادات أو اللغة، وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم".([[9]](#footnote-9))

كان الصينيون ينظرون إلى غيرهم على أنهم برابرة وهمج، وكانوا يرون في أنفسهم كمعظم شعوب الأرض على أنهم أعظم الأمم مدنية، وأرقامهم طباعا، ذلك أن بلادهم تعد من أقدم المدنيات في العالم وأغناها، وتتميز الحضارة الصينية القديمة بسجل حافل بالفلسفة الواقعية والمثالية العميقة، ولديهم تقاليد قديمة في الشعر، وبراعة في صناعة الخزف والنقش وإتقانهم لجميع الفنون الصغرى، وكذا تميزا بنظام اجتماعي متماسك دام لقرون طويلة.

1. **الحضارة العربية والإسلامية:**

تعد الحضارة العربية والإسلامية من أقوى الحضارات الإنسانية إشراقا في جانبها الروحي والإنساني، ويعدّ الإيمان بالله الواحد أولى دعائمها، ومن هذه الدعامة الأساسية تفرّغت بقية الأمور الاعتقادية، كما جعلت من أولى دعائمها الإنسانية احترام الإنسان واحترام العقائد الأخرى، مصداقا لقوله تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾([[10]](#footnote-10))

هذا الجانب الروحي والإنساني آثار إعجاب الفلاسفة والمستشرقين المنصفين، إذ أقرّ الفيلسوف رينان([[11]](#footnote-11)) بقيمة الإنسان في الحضارة العربية الإسلامية فيقول: "الإسلام هو دين الإنسان".

وتنظر الحضارة الإسلامية إلى الإنسان على أنه كل لا يتجزأ، فالإنسان في منهجها من أسمى المراتب، وهو غاية في ذاته، وغاية في حريته وطمأنينة، كما جعلت هذه الحضارة من العلم في كل مجالاته فريضة على المسلمين، ورفعت مكانة العلم والعلماء إذ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾([[12]](#footnote-12))

لقد وصف كثير من المستشرقين الحضارة العربية، ومبتكراتها وإبداعها الفني، وقالوا: بأنها من الحضارات الإنسانية المهمة، ومن هؤلاء المستشرقين ما قاله غوستان لوبون وهو يصف حيوية هذه الحضارة بقوله: "وقد رأينا العرب ذوي أثر بالغ في تمدين الأمم التي خضعت لهم، وقد تحولت بسرعة كل بلد خفقت فوقه راية الرسول الأكرم، فازدهرت فيه العلوم، والفنون والآداب والصناعة، والزراعة أيما ازدهار"، ومن حيث حيوية هذه الحضارة، فقد أثرت في المدنية العالمية، وفي نقل تراث الأمم القديمة، وكان لها أثر فعال في الشرق والغرب، كما كانت من عوامل النهضة الأوروبية الحديث([[13]](#footnote-13)).

ومثلها مثل الحضارات الأخرى، لم تظهر هذه الحضارة من العدم، لأن تطوّر الحضارة البشرية متصل الحلقات كما يقول ابن خلدون، فهي حصيلة الموروث الحضاري العربي، وما جاء به الإسلام من نظم وشرائع، ممتزجة بالمقتضيات الحضارية للأمم الأخرى، التي صيغت بالطابع العربي الإسلامي المميّز، وكانت هذه الحضارة قد قدمت صورة مشرقة استنارت بها شعوب وأمم كثيرة في الشرق والغرب، وبما تحمله من عنصري الانفتاح والإبداع إزاء تلك الأمم.([[14]](#footnote-14))

1. **في عصر النهضة وحركة التنوير في أوروبا**

عرفت أوروبا عصر النهضة في الفترة الممتدة ما بين القرن السادس عشر إلى غاية القرن التاسع عشر، وظهرت في هذه الفترة النزعة الإنسانية في العلوم والفنون وفي الآداب والفلسفة.

وأطلقت كلمة الإنسي أو الإنساني على الباحثين المتبحرين في العلم، وخاصة علوم اليونان والرومان، حيث ظهروا في إيطاليا أولا، قبل أن يظهروا في بقية أنحاء أوروبا وكان أول هؤلاء هو الفيلسوف والمفكر بيتراك (1304-1374)، وكذا دانتي (1265-1321) وكلمة "هيومانيزم" مشتقة من كلمة Homme التي تعني الإنسان في اللغات اللاتينية وهدفها تحقيق المثل العليا للكمال الإنساني في كافة المجالات: من أخلاقية وفنية وأسلوبية واجتماعية وسياسية، وقد بلغت هذه الحركة ذروتها في القرن السادس عشر وإن كانت قد نشأت سابقا([[15]](#footnote-15)).

لقد ولدت حركة النهضة في ايطاليا أولا، وازدهرت إبان القرن الخامس عشر في فلورسنا، وذلك قبل أن تنتقل إلى روما، ثم جاء اكتشاف المطبعة من قبل الألماني غوتنبرغ عام 1455، حيث قدم مساعدة كبيرة إلى النهضويين، فلأول مرة أصبحت الكتب تطبع أليا بآلاف النسخ، وهنا بدأت الكتب تطبع والأفكار تنتشر، وكذلك بالنسبة للإصلاح الديني.([[16]](#footnote-16))

ثم سرعان ما برز عصر التنوير، أو كما يسمى "عصر العقل"، ويعني نشوء حركة ثقافية تاريخية دعيت بالتنوير، والتي قامت بالدفاع عن العقلانية ومبادئها، كما شكلت هذه الحركة أساسا وإطارا للثورة الفرنسية فيما بعد، ومن ثم للثورة الأمريكية، وحركات التحرر في أمريكا اللاتينية، كما مهدت لنشوء الرأسمالية، ونجد من أهم فلاسفة ومفكري عصر التنوير: فولتير، جان جاك روسو، ديفيد هيرم، أوغست كونت، ديكارت وغيرهم.

كما تميّز هذا العصر بتعاظم المنهج النقدي المرتبط أساسا بالعقل، وأصبح محورا للفكر الفلسفي والاجتماعي خضعت له جميع ظواهر الحياة دون استثناء، كما امتدت رياح التنوير إلى الأدب والمسرح واللغة حيث صدرت أعمال فنية وأدبية ومسرحيات نقدية، وترجمت أمهات الكتب الإغريقية، وقد أنتج عصر التنوير تيارات فكرية، ومذاهب سياسية، ونظريات اجتماعية وفلسفية نقدية، وحركات اجتماعية جذرية شملت جميع أوروبا، وكان في مقدمتها فلسفة التاريخ، فلسفة القانون، ونظريات العقد الاجتماعي، والاشتراكية وغيرها([[17]](#footnote-17)).

1. **()**- سمير أديب: موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص757. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- المرجع نفسه، ص759. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- عنوان المقال: هرودوت يتحدث عن مصر، الموقع kutubbd book-com/books، تاريخ الاطلاع: 21نوفمبر2019، الساعة10.00. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- عبد المجيد: تاريخ حضارات العالم القديم، (د.ط)، الجمهورية اليمنية، 2017، ص12. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()**- المرجع نفسه، ص15. [↑](#footnote-ref-5)
6. **()**- حسين الشيخ: الرومان دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005، ص317. [↑](#footnote-ref-6)
7. **()**- المرجع نفسه، ص324. [↑](#footnote-ref-7)
8. **()**- طارق العمراوي: الصين القديمة، الموقع الالكتروني، صحيفة ميسلون؛ Maysilon. News. html، تاريخ الاطلاع:22 نوفمبر 2019، سا: 10:00. [↑](#footnote-ref-8)
9. **()**- المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-9)
10. **()**- سورة البقرة، الآية: 256. [↑](#footnote-ref-10)
11. **()**- أنظر شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية موجز عن الحضارات السابقة، ط2، دار الفكر، دمشق، 2002 ص12. [↑](#footnote-ref-11)
12. **()**- سورة الزمر: الآية: 09. [↑](#footnote-ref-12)
13. **()**- عبد الحسين مهدي الرحيم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، (د.ط)، مطبوعات الجامعة المفتوحة، طرابلس، لبنان 1995، ص33. [↑](#footnote-ref-13)
14. **()**-عبد الحسين مهدي الرحيم ، المرجع السابق، ص51. [↑](#footnote-ref-14)
15. **()**- هاشم صالح: مدخل إلى عصر التنوير، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص75. [↑](#footnote-ref-15)
16. **()**- المرجع نفسه، ص80. [↑](#footnote-ref-16)
17. **()**- إبراهيم الحيدري: عصر التنوير والحداثة، موقع إيلاف elaph.com/2009 تاريخ الاطلاع: 27 نوفمبر 2019، ساعة: 10.00. [↑](#footnote-ref-17)